

المستوى الأخلاقي وذرائع ممارسة العنف في الخطاب المسجدي

أ.د. موسوني محمد
مدرس مختبر أنثروبولوجيا الأديان ومقارنتها
دراسة سوسيو أنثروبولوجيا
جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

المسألة الأخلاقية في اختلاف الخطاب الإسلامي :

" إذا كان الإسلام ينهى عن الاختلاف ويشجبه ولا يرتضيه للأمة ، فإنه لا بد من التنبيه إلى أن الاختلاف ليس نوعا واحدا ولا يمكن تفاديه كله ، فالاختلاف الناشئ عن تفاوت المدارك وتباين طرق النظر إلى الأشياء لا يمكن إلا أن يكون خلافا طبيعيا ، كما أن الاختلاف عن الغير حين ينحرف هذا الغير ليس إلا وجها من أوجه الثبات على الحق ، فهو بهذا اختلاف محمود." (1)

فالاختلاف الذي يقع بين المجتهدين المؤهلين حول النصوص التي تحمل معاني متعددة ، فيحملها أحدهم على أحد مدلولاتها ، ويحملها البعض الآخر مدلول آخر ، فيكون الاختلاف هنا مشروعا ؛ ولعلّ أروع مثال على هذا ، ما جاء في القرآن الكريم من خلاف في الاستدلال بين داود وسليمان - عليهما السلام - حين عرضت عليهما قضية الغنم التي نفشت في زرع قوم فأفسدته ، فجاء حكم داود بتعويض صاحب الزرع من الأغنام ، لكن سليمان رأى أن مصلحة الطرفين أن يستفيد صاحب الزرع المتضرر من الأغنام ، ويستتقي الحرث بيده ليصلحه ، فإذا عاد إلى حالته الأولى ، أعاد صاحب الزرع الأغنام إلى صاحبها ، وهو الحكم الذي رجحه القرآن وزكاه في قوله تعالى : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما. ﴾ (الأنبياء : 77-78) ؛ فالقرآن يقرّ الاختلاف الناتج عن الاجتهاد ، ولا يربط إصابة الحق بالسنن ،

باعتباره زكّى رأي الابن و رجح حكمه على حكم أبيه مع أنه لم ينتقص من علمهما ولا من حكمهما ؛ فحالة الخطأ في الاجتهاد حالة ظرفية كما اثبت الشرع للمجتهد مع الخطأ أجر و للمصيب أجران ؛ لكن الاجتهاد له ضوابط وشروط ، فلا يمكن الاجتهاد في أصول الدين ، لأنه يؤدي إلا إلى الخروج عن هذا الدين و تمزيق جسد المجتمع الإسلامي ، وما تلك الفرق الضالة التي نخرت جسد ذلك المجتمع كالسرطان الكريه إلا دليلا على حرمة الاجتهاد في الأصول ؛ بل إن القرآن جعل من يأتيه مفرقا لا يمت للإسلام بالصلة في قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: 160). وعليه فإن الاجتهاد الذي يؤدي بصاحبه إلى إحداث الفرقة في الدين، وضرب وحدة المسلمين، حتى لو لم يكن اجتهاد في الأصول فهو غير مقبول؛ فالاختلاف الذي زكاه الفقهاء في فروع الدين لم يكن يحمل مثل هذا (الفيروس) ، بل لم يكن في ذلك النوع من الاختلاف أي ضرر لأنه كان مربوطا بما تيسر لكل مجتهد من وسائل الفهم و الإدراك ، وهو فوق كل ذلك من مظاهر الحيوية والمرونة و أهلية هذا الدين في كل زمان ومكان⁽²⁾.

ولو لم يختلف الفقهاء لضاقت بالناس السبل وشق عليهم الدين ووجدوا فيه من الحرج ما لا يطيقون فقد قال تعالى: ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ (الحج: 76).

وهو ما يفسر اختلاف الصحابة ومن تبعهم ؛ لأن الاجتهاد في الفروع تفرضه متطلبات الحياة المتجددة ، وحاجة المجتمعات المختلفة ؛ فاختلقت بذلك مناهج الاستنباط ونشأت في ظلها المذاهب الفقهية⁽³⁾.

ولعل المشكلة الأخلاقية التي وقع فيها الكثيرون (في الجزائر وفي غيرها من البلاد).

ليست في اختلاف الفقهاء والمذاهب ، ومن يأخذ بهذه الاختلافات ، بل إنها تمكن في عدم الإحاطة بأدب الاختلاف والخلاف ، بمعنى أن المشكلة ترجع بالأساس إلى أخلاقيات بعضها تعاملي ويتعلق بترك التعالي وما يصاحب ذلك من افتراض للخطأ عند الغير والعصمة للنفس ، وهو ما يفرض اختيار الألفاظ التي بإمكانها تأليف وتقريب القلوب ، بدلا من إقامة الحجة على الطرف الآخر ، دون أن يكون ذلك مطلوبا لتبيان الحق ، أو تعمد ذلك بهدف الانتقاص من الآخر ، كما يجب أن يتحرى التماس العذر المخالف. وقد سبق من ذكر كيفية تعامل الفقهاء مع النص والقواعد الأصولية التي اعتمدوا عليها ، ما يبين تحليهم وتمسكهم بهذه الخلاق العالية في التعامل مع المخالف ، واحترام التخصص ؛ لأن الاجتهاد لم يأت إلا لاستتباب وسائل التعامل مع المتغيرات ، فلم يحدث أن صحابيا رمى صاحبه بالكفر أو الابتداء لمجرد مخالفته له في رأي من الآراء ؛ فالارتقاء إلى مستوى أدب الخلاف هو لعمرى الكفيل بتجنيبنا مشاكل عدة.

لكن واقع الحال يؤكد بما لا يدع مجالا للشك فعلية الخطاب الإسلامي ما تزال بعيدة المنال ، خاصة على مستوى الممارسة التطبيقية ، ومن أناس كانوا وما يزالون يدعون العصمة من حيث لا يشعرون ؛ فتعرف ذلك من لحن قولهم إذا نطقوا ، وفي غنة صوتهم إذا خطبوا ، ولعل هذا مكن دلائل التطرف والتعصب والفلو ، من حيث هو محاولة للحجز على آراء الآخرين من المخالفين والغائها. فهؤلاء يرون أنفسهم أن الحق في كل ما يقولون وما يأتون ، وغيرهم على الضلال ؛ واتهموا كل من خالفهم بالجهل واتباع الهوى ، ورموا كل من جانب طريقهم بالفسوق والعصيان ؛ مع أن سلف هذه الأمة وخلفها على حد سواء أجمعوا على

أن كل أحد يؤخذ من كلامه ويردّ إلا النبي - صلى الله عليه وسلم - . وإن تعجب فعجب أن ترى هؤلاء يجيزون لأنفسهم الاجتهاد في أعوص المسائل وأعقدها ، ويفتون في أمهات المسائل بما يلوح لهم من رأي ، ولكنهم لا يجيزون لعلماء العصر المتخصصين ، منفردين أو مجتمعين ، أن يجتهدوا في رأي يخالف ما ذهبوا إليه .

" فهذا التعصب المقيت الذي يثبت المرء فيه نفسه ، وينفي كل من عداه ، هو الذي نراه من دلائل التطرف حقا ، فالمتطرف كأنما يقول لك : من حقي أن أتكلم ، ومن واجبك أن تسمع ومن حقي أن أقول ، ومن واجبك أن تتبع ، رأيي صواب لا يحتمل الخطأ ، ورأيك خطأ لا يحتمل الصواب ، وبهذا لا يمكن أن يلتقي بغيره أبدا ، لأن اللقاء يمكن ويسهل في منتصف الطريق ووسطه ، وهو لا يعرف الوسط ، ولا يعترف به ، فهو مع الناس كالمشرق والمغرب لا تقترب من أحدهما إلا بمقدار ما تبتعد عن الآخر ."⁽⁴⁾

ومن أخلاقيات الخطاب المسجدي التيسير وترك التعسير ، لكننا نجد في واقع كثير من خطباء هذا الزمان التزام التشديد دائما ، مع قيام موجبات التيسير ، والزام الآخرين بما لم يلزمهم به الشرع ، بل قد يحاسبون الناس على السنن والنوافل وكأنها فرائض ؛ وينهون عن المكروهان بصيغة إنكارهم على المحرمات ؛ بل إنهم يعمدون إلى النيل من كل من يفتي بما هو أرفق فيما اختلف فيه من مسائل ، وهي طامة أخرى تضاف إلى خانة التشدد فيوقت نحن في أمس الحاجة إلى الابتعاد عن كل هذه السلوكيات المنفرة ، فمجال الدعوة لا نصيب فيه للغلظة والفظاظة ، ولا مرتع فيه للعنف والخشونة ، قال تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ (آل

عمران : 159) ، وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وهو يؤكد هذا المنهج القويم : " إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه " . (رواه مسلم) ⁽⁵⁾ .

فكيف لا يشين العنف خطابا يدعو إلى التغيير الأخلاقي والعقيدى مثل الخطاب الإسلامى الذى يتوجه إلى أكثر شيء جدلا في هذا الوجود وهو الإنسان ؟ ثم إن فرعون وهو من أطفى المخلوقات على الإطلاق ، أرسل الله إليه موسى وهارون - عليهما السلام - بقوله : ﴿ اذهبوا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعلّه يتذكر أو يخشى ﴾ (طه : 42-43) ، ونحسبها وصية ينبغي اتباعها في مخاطبة المعاندين والمخالفين ؛ لكن من غلب على لغة الخطاب والخطباء في عصرنا هو المواجهة بالغلظة والحدة ، والمخاطبة بالخشونة والشدة ، وحلّ الجدل "بالتى هي أحسن" مكان "التي هي أحسن" ، فلا توقير لكبير ، ولا رحمة ولا رأفة بصغير ؛ وأصبح سوء الظن بالآخرين منطلقا لكل خطاب ، ومدخلا لأي كتاب ، تضخم فيه السيئات وتخفى الحسنات ، ولا مكان فيه لالتماس الأعذار ؛ بل إن الخطأ اعتُبر خطيئة ، فأين هي "أخلاقه" الخطاب وسط كل هذا الضباب ؟ وهل يكون التيسير بالتكفير والتفجير ؟

تلك هي بعض ملامح وأبعاد المشكلة الأخلاقية في تعامل الخطاب المسجدي مع المخالف على مستوى الممارسات والتطبيقات الحديثة ، والتي اعتُبرت في كثير من صورها شاذة عن الجادة . فما هي ذرائع ممارسة العنف في الخطاب المسجدي ؟ أو بالأحرى ، ما هي شبهات تلك الممارسة والانحرافات ؟

كثيرا ما تذرع الخطباء بذرائع وشبهات أخفوا ورائها ممارستهم للعنف في خطب ارتجالية قادت إلى مصائر لم يكونوا يتخيلونها حتى كواييسهم وأحلامهم المزعجة ؛ ولعل من أعظم الذرائع وأخطرها شبهة "التعطيل التي تربط بالشريعة أحيانا ، وبالجهد والشعائر والطقوس أحيائين أخرى. فشبهة تعطيل الجهد مثلا ، كثيرا ما تذرع بها خطباء بعض المساجد الذين لم يفقهوا كنه التمييز بين بناء المجتمع الجزائري وترقيته وبين هدم بنيته وتصفيته؛ ثم من قال "أن الإسلام لا يمكن أن يقبله الناس إلا إذا أرغموا على ذلك ، وكأن هذا العقل الذي أودعه الله في الإنسان لا يمكن أن يهاجم بالبرهان، فنترك بيان البرهان والكسب الطي يحصله لنا ، إلى شيء يديننا، ويدين فكرتنا." (6) فكل أولئك الذين كانت لديهم الجرأة الكافية لإعلان ما يؤمنون به في أيام الجاهلية ، وقع عليهم عدوان باغ جعل القلوب تهفو لهم ، باعتبارهم دعاة للحق والعدل دون أن يقولوا كلمة واحدة تنفّر منهم ، مع أنهم أظهروا عقيدتهم علنا ، وجهرها بها زمنا ، لكنهم ما سعوا إلى حكم غيرهم ، قبل أن يصبحوا قادرين على حكم أنفسهم ، بجعل الناس سالمين من لغو لسانهم ، وبغي سنانهم. وبساطة لم يكن لمجتمع سوي كالمجتمع الإسلامي ، أن يُبنى على ثقافة العنف ، وإنما بالقدرة على الإقناع بالموعظة والدعوة المتأنية ، كما حدث مع جميع الأنبياء - عليهم السلام - ، فهو منهج ربّاني رصيده كلمة العدل والتقوى وآليته واللين والرحمة.

ومن الذرائع كذلك ، عدم التزام التسامح والخلاق العالية (بشكل عام) مع الذين لا يلتزمون بها ، فالعنف في مخاطبتهم قد يكون أجدى (في نظرهم) ؛ وهذا في تقديرنا حكم مسبق ، ونظر تشاؤمية ،

وانتقاص من قيمة الأخلاق في إصلاح البشر، فالقرآن الكريم يجعل الانتصار الأخلاقي كفيلاً بتحويل العدو اللدود إلى صديق ودود ، قال تعالى : ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (فصلت : 33) ؛ ويكون خطاب التسامح في هذه الحالة شاقاً على النفس ، ويحمل في طياته مجاهدة كبيرة لها ، وهو ما يفسر قوله تعالى : ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ (فصلت : 34) ؛ ولذلك كان من الواجب تضادي تقليد المناوئين والمخالفين في تغييب التسامح والأخلاق ولو بجزء يسير، ومهما كانت الظروف ؛ ولعل ما يميز الخطاب المسجدي الرشيد عن غيره من الخطابات الانتهازية التي لا تثبت على مبدأ ولا تلتزم بمنهج.

" قد يقول قائل : إنك إذا قلت الحق مجرداً من أن يكون هناك قوة قد تدعمك ، فإنك تُترك ولا ينتبه إليك أحد ، وكما أنه لا يبالي بك أحد ، فتظلّ تتعق والناس لا يستمعون إلا لمن يلوح لهم بالقسوة ، وسوقهم بالعصا. فإذا لا فائدة من اتخاذ طريقة الدّعوة إلى الله بالبلاغ فقط ، ولا بدّ لك من قوة." (7) إن هذه الفكرة التي سيطرت على كثير من الخطباء ، فصاروا لا يعتمدون إلا العنف ، ولم يعد لديهم أدنى اعتبار للحجة والبلاغ ، فزهدوا فيهما نظرياً وتطبيقياً ؛ بل إنهم لم يتركوا ملتزماً بذلك المنهج إلا أنهموه بالمداينة والتساهل ، وجعلوا ما يقوم به بلا قيمة وبلا تأثير؛ فخطاب العنف - بالنسبة لديهم - لا بديل عنه في الوقت الراهن ؛ لكنهم يجهلون خطورة أن تتقلب الخطبة العنيفة إلا سلاح فتاك -بحكم الآثار العكسية- يذهب بكل ما حققه الخطاب من تبشير ، ويزرع بذور الفرقة والتفجير.

وقد يتسرب إلى أفكار بعض الخطباء ، أنهم إذا وظّفوا العنف في خطبهم ، كان في ذلك إبعاد لشبهة العجز والضعف والخوف عنهم ؛ وأن تبنى تلك الطريقة في الخطاب هي نوع من الستر إلى حقيقة ما يعترى شخصياتهم من وهن وخور واهتزاز ، مما يجعلهم يجاوزون حدود ما وجب عليهم القيام به في الأصل ، فيعمدون إلى الدخول في صراعات فكرية لا تدخل في نطاق إدراكهم وتخصّصهم ، فيكون الخطأ منتهى سلوكهم الذي لا يقف عند حدود شخصياتهم الضعيفة ، بل ينقلون تلك الأخطاء إلى غيرهم من جمهور المتلقين المستمعين إلى خطبهم باعتبار أن ما يقولونه يدخل في إطار مهمّتهم ورسالتهم ؛ وإنما هي جرأة وشجاعة أراد أصحابها أن يتحمّلوا مسؤوليتهم وتبعاتها بكلّ بأس ومراس ورياطة وجأش؛ والحقيقة أن هذا النوع من الخطب العنيفة لا يخلو من الصعوبات والمشقّات⁽⁸⁾ . فمعالجة القضايا بالصبر والأناة ، والتعرّض للمسائل بالمرونة والرؤية أريح للضمير رغم مشقتها ، وأفضل بكثير من ركوب موجة العنف التي لا يُعرف لها ساحل ولا برّ.

فمحاولة الخطباء إضعاف الشرعية والمصادقية على خطبهم ، بإلقاء الرعب في قلوب الناس وإبعادهم ، قد يكون له آثار سلبية تنقلب على مستوى انسجام المأمومين مع إمامهم ، لكنّ ما يتذرّع به هؤلاء في ممارستهم هذا الأسلوب الخطابي لا يقع إلا في حدود هذه الفكرة نفسها. وقد يبدو ذلك غريبا من الناحية النظرية ؛ غير أنّ الشبهة التي تطفو على السطح هنا ، هي على مستوى تطبيقات الخطباء الذين يعتقدون أنّ توجهات خطبهم حين تغدو عنيفة ، لا تصبح ذات تأثير ؛ بل إنها قد تقود إلى التنفير ، فما أعجب هذا القياس ! وما أخطر هذا التبدّل في الفكر ! ففي نظرهم لا يكون التفكير في الطرق المديّة لتحريك

عواطف الناس خارجا عن دائرة العنف ، وإلا كان تفكيراً سلبياً ، وما ضاعف من ثقل وطأة المحن التي نزلت بالخطباء في حقيقة الأمر وواقع الحال ، ابتعادهم عن روح العلم وإتقان العمل الذي يقوون به ؛ لأن مجرد إدخال المؤشرات المتعلقة بإثبات الشخصية والذات كفيل بإفراغ رسالة الخطيب من محتواها ، لأن العمل حريّ به أن يأتي بأنفس الثمرات وأعظمها. ولا شك أن ذلك مرتبط بمنهج قويم بعيد عن ذلك المسلك ، لأن سبب خوف الناس مقترن بما يتضمنه خطاب العنف من محتويات غير شرعية (إن لم تكن بدعية) ؛ وهي الطريقة التي طالما نفرت أو استنفرت ، فضرت وأضررت ، وضلت وأضلت ؛ لأنها تتذكر أي فضل للقوة المعنوية . ووصل الأمر إلى تشبيه الخطباء الملتزمين بهذا المنهج " بالخرفان " (كناية مستعارة أريد بها اتهامهم بالجبن والدّعر) فضلا عن تصنيف جهودهم في خانة : (ذهب قولهم سدى) ، وهي إشارة إلى عدم جدوى ما يقومون به .

والذرائع المعروضة - كما هي طبيعة الموضوع - أكثر من أن تحصر ، ولعلها ترجع في أغلبها ، إلى تقديم الإلزام على الإقناع؛ وتقديس مظاهر العنف ، وجعلها في مقام الأولوية بالنسبة لأي تغيير يراد تحقيقه ، وفي أي خطاب يطلب سماعه ؛ وقد أخطأ أصحاب هذه النظرة الضيقة عندما وقعوا في مأزقين : أولهما إرغام الناس على ما يعتقدون أنه الصواب بالقوة والعنف ، وثانيهما الخضوع لأفكار الآخرين خوفا من قوة مسلطة أو عنف يطالهم ، في انهيار تام للضمير الخلقي وسلم القيم الذي من المفروض أن يشرف على تقييم الأقوال قبل الأفعال ، هذا الضمير الذي من المفروض أن يشرف على أي شخص آخر.

و إذا كان الإقناع هو وظيفة الخطاب الإسلامي وغايته فإن "الأقناع" (❖) هو واقع وحالته على مستوى الممارسة و التطبيق ، فما هي يا ترى حدود تموضعه و تمزقه بين هذا وذاك ؟

إن إشكالية "أخلاق" أو تخليق الخطاب الإسلامي تحتاج إلى بحث مستقل ، حتى تستوفي الإجابة عن بعض حيثياتها ، باعتبارها موضوعا قائما بذاته من الناحية النظرية ، وباعتبارها تتضمن تساؤلات تشكل حديث الساعة في الوقت الراهن ، لكن وظيفة الإقناع في تخليق الخطاب المسجدي لا تخرج عن كونها ضرورة من ضرورات الارتقاء بمستوى هذا النوع من الخطاب على المستوى الأخلاقي ، حتى لا يسقط في فخ المغالطات والاستخفاف والركاكة ؛ فكثيرا ما سمعنا عن خطباء لا يأبهون بما يقولون ، وتغلب الرتابة على خطبهم ، بحيث لا يحدث أبدا ، أن يحاولوا شدّ انتباه المصلّين من المستمعين ، فضلا عن إقناعهم بسلوك أو خلق معين ؛ بينما تجد آخرين يفرطون في انزلاقاتهم الكلامية التي تؤذي وتقمع أكثر مما تقنع ، ويطلقون العنان لألسنتهم بالتضليل ، دون حجة ولا دليل ؛ ولعلّ هذا الأمر هو الذي دفع الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" إلى نقد هذا النوع من الخطاب الذي لا يزحف نحو لبّ العقول بالحجة والمنطق ، ولا يقنعها بالدليل والبرهان ، وإنما يعاملها باستخفاف وخداع يثير الملل ، فيجعلها مقفلة عن الفهم والإدراك ، خالية من مكونات الاستعداد والقبول للخطاب الإقناعي ؛ ممّا قد يؤدي إلى إلغاء العلاقة بين الخطيب ومن يستمع إليه ، أو توترها على الأقل كما حدث على أيام الجاحظ.⁽⁹⁾

وعلى نفس النسق ، درج ابن رشد في كشف الانحرافات التضليلية والقمعية ، ومقارعة الخطاب المغالط الاستبدادي من الناحية

الفكرية ؛ وقد تأثر بالغا بتقسيمات أرسطو التي جعلت الخطاب ثلاثة أنواع مختلفة : أولها الخطاب الشجاري (الذي يجري في المحاكم) ، وثانيها الخطاب الاستشاري الممارس في الصالونات السياسية (البرلمان والجمعيات... إلخ) ؛ أما ما يهتمنا في هذا السياق ، فهو الخطاب التثبتي الذي يغلب عليه التقبيح والتحسين ، باعتبار الخطاب المسجدي يدخل في هذا الإطار ؛ وابن رشد كان يبحث لهذا الخطاب عن مصداقية عندما طالب بأن يكون أخلاقيا ومنطقيا ، حتى يبلغ درجة الإقناع ؛ فقد عايش ابن رشد بعضا من التزييف الذي مارسه بعض الخطباء في زمنه الذي يعد استمرارا لعصور الانحطاط ، من حيث التسلط والاستبداد والهيمنة التي شهدتها الخطابة المنبرية الوعظية والتوجيهية ، في استبدال الترغيب والترهيب بالمنظور السلطوي ، فضلا عن خطباء التضليل والسفسطة الذين أساعوا استخدام البلاغة وعلم الكلام فضّلوا وأضلّوا.⁽¹⁰⁾ وهو ذات السبب الذي حمل محمد عابد الجابري على الدعوة إلى ضرورة تجاوز هذا النوع من الخطاب الجدلي السفسطائي ، والتأسيس لخطاب مرحلي يتبنّى حجة العقل وقوة البرهان.⁽¹¹⁾

وإذا كان الجاحظ قد برع في ردّ الحيل المضلّة بالحجج والأدلة الدامغة ، واستغلّ أرسطو وابن رشد بلاغتهما في تخليق الخطاب بحيث يصبح قادرا على جانب الشفاء ، شأنه في ذلك شأن الطبّ ممّا يؤدي إلى انتصار قيم الخير والعدل والجمال ؛ فإن حال الخطاب اليوم ربّما يكون أكثر سوءاً ممّا كان عليه في عصور الانحطاط ؛ وصار التنفير أو "الإقناع" مقابلا للإقناع إذا لم يكن بديلا عنه ، فلم يعد لاستمالة الناس بالحجة والدليل (النقلي والعقلي) أيّة قيمة تذكر ، فأصبحت الخطب المنبرية في حدّ ذاتها غاية وليس وسيلة بالنسبة لبعض الخطباء ؛ فصاروا

ينصرفون عن المداينة حتى يصرفوا الناس عن حقيقة كفايتهم ومستوى تأهيلهم، والبحث عن التكفل والتصنع خلال الإلقاء الشفوي للخطب؛ وهي وضعية مناقضة للأولى، لكنّها من ناحية فراغ المحتوى والمضمون تبدو متناغمة معها وموافقة لها. ومن ناحية غياب وسائل التمثيل والتشخيص والتأثير كآليات للإقناع، وحضور أساليب التهويل والإغنيات والاستخفاف يظهر "الإقماع" كحالة مرضية وجبت معالجتها في حال تمكّننا من الارتقاء بالمستوى الأخلاقي للخطاب المسجدي؛ فلسنا نزايد إذا قلنا أنّ أعراض هذه الحالة أو كثيرا منها صار مشخضا، ولا يحتاج إلّا إلى تحديد العلاج، فلم يعد الأمر متوقفا فقط على الناحية الشكلية كاستخدام العاميّة وعبارات الابتذال، وإنما تعدّاه إلى مضامين "الإقماع" داخل هذا الخطاب على غرار ضعف البصيرة بحقيقة الدين والجهل به الذي لا يفضي إلّا إلى غلوّ وتطرّف، أو إلى انحلال وتسيّب، وهو ما يعني تصدير الجهل للآخرين.

ومن مظاهر "الإقماع" في الخطاب الديني اشتغال بعض الخطباء الذين يفتقرون للعلم الشرعي بالمسائل الجزئية، والأمور الفرعية؛ وإهمال القضايا الكبرى التي تشغل بال الناس، وربما تتعلق بهويّة الأمّ ومصيرها. وهذا النوع من الهامشية المشينة في النبذة الخطابية لبعض الأئمة الذين كثيرا ما غرقوا في الجدل العنيف، والانقسام المخيف، الذي قد يطال فئات المصلّين الذين يحضرون خطب هؤلاء، فيتأثرون سلبا بما يقولون، وهو ما يؤدي إلى انحرافات على مستوى الممارسة والسلوك خاصة لدى الشباب اليافع المتحمّس الذي قد يسقط في فخّ المغالطات والأباطيل دون شعور ولا وعي. والعجيب أن تجد من هؤلاء الخطباء والأئمة الذين يشيرون مثل هذا الجدل والعنف المصاحب له،

أناساً معروفين في محيطهم العائلي بالتقصير في برّ الوالدين، وحقّ الجيران والأهل، بل إنهم قد يضربون أسوأ الأمثلة في ذلك.

ومن "الإقماع" في الخطاب الديني، التشديد والتضييق على الناس مع وجود سعة في الشريعة، وربما يعود ذلك إلى عدم الرسوخ في معرفة الفقه وأصوله ممّا يؤدّي ببعض الخطباء إلى توسيع دائرة التحريم التي نهى عنها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَقْتُلُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَفْلَحُونَ﴾ (النحل: 116)؛ فالملّيون إلى الغلوّ من الخطب قد يسارعون إلى التحريم مع وجود الخلاف في المسائل، فيجنحون دوماً إلى الرأي الأكثر تشدداً، وقد يكون المذهب الأرجح في المسألة من السعة والرخصة والتسيير ما يدفع التضييق على الناس. بل إنك تجد من يبالغ في الزجر بعنف وفضاضة على ترك بعض السنن، وهو من حديثي العهد بارتياح المساجد، فيكون ذلك دافعاً له على ترك الفرائض، وهذا واقع عايشه عامّة الناس.

ومن حالات "الإقماع" في الخطاب المسجدي كذلك، إتباع المتشابهات في التعامل مع النصوص، وترك المحكم والبيّن منها بالدليل، وهو أيضاً من علامات عدم الرسوخ في العلم ودليل على وجود زيغ في القلب، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ (آل عمران: 7)؛ ومن "الإقماع" تحميل المحسنين تقصير المسيئين، ويضاف إلى ضعف البصيرة بالدين، ضعف البصيرة بالواقع والحياة والتاريخ، ويسنن الله في الخلق، فتجد أحدهم يريد ما لا يكون، ويطلب ما لا يوجد، ويتخيّل ما لا يقع، ويفهم الوقائع على غير حقيقتها، ويفسّرهما وفقاً لأوهام رسخت في رأسه

، لا أساس لها من سنن الله في خلقه ولا من أحكامه في شرعه ، فهو يريد أن يغيّر المجتمع كلّهُ : أفكاره ومشاعره وأخلاقه وأنظّمته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بوسائل وهمية وأساليب خيالية.⁽¹²⁾

واللجوء إلى العنف في مخاطبة الناس غالباً ما يؤدي إلى نتائج عكسية سواء كان المراد بذلك الخطاب إصلاحاً لفساد ، أو تصحيحاً لخطأ ، أو إقامة لحجة ؛ فالمتلقّي الذي يُجزر بطريقة منفرة ، أو يُعنف بأسلوب فيه من القسوة والغلظة ما يفقد القابلية للإصلاح والتغيير؛ قد ينقلب على عقبيه ، ويتحوّل إلى الجهة المقابلة ، إرضاءً لدواخله النفسية الدفاعية ، ونوازعه الشيطانية؛ وهو ما يفسّر فقدان خاصيّة الإقناع لدى الخطباء الذين ينهجون تلك الطريقة في مخاطبة الناس ، وكثير منهم يأتي بالنصيحة على شكل فضيحة ، وبدل أن يداوي النفوس أُرداها منكسرة جريحة؛ فالإقناع أسلوب في الكلام وطريقة في الفهم ، وقدرة على البيان والإيضاح ، وهي ناذرا ما تتوفّر مجتمعة ، خاصّة لدى خطبائنا في الوقت الراهن ، ناهيك عن فنّ التعامل الذي يقتضي مخاطبة الناس على قدر عقولهم (لكلّ مقام مقال) ، وحسن التعامل مع الوقائع والأحداث المستجدة (لكلّ حادث حديث) ، وهي صفات ترسم معالم وظيفية الإقناع في الخطاب المسجدي.

الهوامش :

- 1- أحمد بن نعمان ، مرجع سابق ، ص 144
- 2- عبد السلام محمد أبوا سعد ، الخلافات الفقهية ، مقال نشر بمجلة الرسالة ، عدد 14/13 ، الصادرة عن وزارة الشؤون الدينية بالجزائر في أكتوبر 1988 ، ص 39 .
- 3- احمد بن نعمان ، مرجع سابق ، ص ص (146 .148)
- 4- يوسف القرضاوي ، الصحوّة الإسلامية بين الجحود والتطرف ، دار الشهاب الجزائر ، الطبعة الثالثة 1983 ، ص 40.
- 5- مسلم بن الحجاج القرشي النيسابوري ، صحيح مسلم ، كتاب البرّ والصلة والآداب ، باب فضل الرفق ، دار إحياء الكتب العربية ، بيروت 1985 ، حديث رقم 4697.
- 6- جودت سعيد ، مذاهب ابن آدم الأول أو مشكلة العنف في العمل الإسلامي ، المطبعة العربية الجزائرية ، الطبعة الأولى 1990 ، ص ص (81 - 82)
- 7- جودت سعيد ، المرجع السابق ، ص 87
- 8- جودت سعيد ، المرجع السابق ، ص 96
- 9- عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق : عبد السلام هارون ، الجزء الأول ، دار الفكر بيروت لبنان ، (دون تاريخ) ، ص 92.
- 10- محمد العمري ، مرجع سابق ، ص ص (36 - 38)
- 11- محمد عابد الجابري ، نحن والتراث ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب ، الطبعة الرابعة 1985 ، ص 38.
- 12- يوسف القرضاوي ، مرجع سابق ، ص 98.

